

أمنّا خديجة قدوة نساء العالمين

إن أمنّا خديجة رضي الله عنها، زوجة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلّم هي أحد النساء الأربع الكاملات في تاريخ البشرية وهُنَّ: بالإضافة لشخصها الكريم، مريم بنت عمران، آسية بنت مزاحم، فاطمة الزهراء بنت رسول الله.. وسأتطرق بحول الله تعالى لخمس نقاط أساسية في حياة هذه السيدة الفريدة وهي: الأسرة التي نشأت أمنّا خديجة في أحضانها، ثم مرحلة شبابها، فزواجها الأول والثاني، ثم اشتغالها بالتجارة، وأخيراً سأبين كيف تعرفت لأول مرة على النبي صلى الله عليه وسلم.

وينبغي الإشارة، قبل الخوض في كل هذه المحاور، إلى أنني سأحدث عن خديجة رضي الله عنها، باعتبارها توأم روح محمد صلى الله عليه وسلم، والعكس صحيح، فمحمد هو توأم روح خديجة، لأن نقاط التشابه بينهما كثيرة جداً. كما سأحاول في كل تفاصيل هذا المقال، إبراز مظاهر التوافق بين هذين الزوجين اللذين لم يُجد، ولن يجود الزمان بمثلهما في كل مراحل تاريخ الإنسانية سابقها ولاحقها.

طفولة وشباب السيدة خديجة

لقد ترعرعت أمنّا خديجة رضي الله عنها في أطهر وأكرم وأترف بيوت مكة، وتربت على الأخلاق الحميدة على يد أبيها خويلد بن أسد، وكان من سادات قريش وأوفرهم مالاً وأحسنهم خلقاً، كما أن أمّها فاطمة بنت زائدة، كانت امرأة فاضلة، أما جدتها هالة بنت عبد مناف، فمن خلالها يلتقي نسب محمد صلى الله عليه وسلم بنسب خديجة رضي الله عنها في قصّتي بن كلاب، وهذا هو وجه التشابه الأول بين هذين الزوجين في قرابتهما عبر النسب، وفي شرف هذا النسب.

أما فيما يخص مرحلة شبابها، فقد تميزت البيئة العربية الصحراوية التي عاشت فيها أمنّا خديجة، بكونها تساعد على النضج المبكر للذكور والإناث على حد سواء، لذلك حين أدركت سن الخامسة عشرة من عمرها، أصبحت فتاةً مكتملة الأنوثة، راجحة العقل، كريمة الأصل، وقد كان القرشيون يُلقّبونها في عصر الجاهلية بالعفيفة الطاهرة، وقد اشتهرت بهذا اللقب لحسن خلقها، ولأنها كانت تنتمي لمجتمع مليء بالفواحش والردائل، حتى بلغ الأمر بالرجال في تلك الفترة من الزمان، إلى الإقبال على قتل بناتهم وهُنَّ صغيرات، خشية أن يُدسّن عرض وشرف الأسرة عندما يكبرن (١).



زواجها الأول والثاني

ولِعِفَّتْها وطهارتها كانت خديجة محط أنظار أنبل شباب مكة، الذين كانوا يتنافسون للزواج منها، وفاز من بينهم أبوهالة بن زُرارة، وكان كثير المال، واسع الثراء، فعاشت معه تقدُّره ويُقدِّرها، وولدت معه طفلين وهما هند وهالة، لكن القدر عجّل بوفاة الأب قبل أن يشبّ أبناءه، لكنه خلف لأسرته مع ذلك ثروة طائلة. ثم عاد الخطّاب يتزاحمون مرة أخرى، للاقتراح بهذه المرأة الجميلة الذكية الخلوقة، فظفّر بها عتيق بن عائذ المخزومي، وأنجبت منه بنتاً واحدة اسمها هند، لكن هذا الزواج الثاني، لم يدم طويلاً كالزواج الأول، فمات عتيق، وخلف لزوجته مالاً كثيراً، وتجارة رائجة ورابحة. في نفس السياق مات أبوها خويلد هو كذلك، واكتسبت منه ممتلكات مترامية الأطراف، وبعد أن ورثت خديجة هذه الثروات الثلاثة الهائلة، أصبحت من أغنى أثرياء قريش (٢).

اشتغال أمنّا خديجة بالتجارة

ولتحليها بالفطنة والرزانة والحكمة، فهي

لم تترك هذه الثروة الضخمة، راكدة وجامدة، ولم ترض بالبطالة والاكتماء باستهلاك هذه الأموال، كما أنها لم تُراب بها في عصر كان الربا متفشياً بشكل كبير، بل استثمرت ثرواتها في مجال التجارة، وهو الميدان الذي برع فيه أبوها وزوجاها السابقان، كما اشتهر به أغلب القرشيين، وقد وثّق القرآن الكريم ميل أهل مكة للاشتغال بالتجارة في قول الله جلّ علاه: «لإيلف قريش إلافهم رحلة الشتاء والصيف» (قريش: ١-٢)، أي أن الله تعالى وفق أهل مكة لتسيير قوافلهم التجارية على مدار العام في الصيف والشتاء إلى مختلف البلدان، حتى صاروا أغنى الناس.

وقد أظهرت أمنّا خديجة رضي الله عنها شطارة كبيرة وحزماً منقطع النظير في تسيير وإدارة أموالها، وقامت بتنميتها وتطويرها، حيث كانت تسهر على تتبع القوافل التجارية، وكانت تدقق في أوصاف الرجال الذين توليهم وتؤمنهم على قوافلها، فلا تختار لهذا الغرض سوى الأشخاص المعروفين بفطنتهم وخبرتهم، وإخلاصهم ونزاهتهم، وعفة أنفسهم،



د. رامي الجمراي
تخصص علم النفس الإكلينيكي

رضي الله عنها حيث لقَّبها القرشيون بالعفيفة الطاهرة، والعكس صحيح فلا يليق بالشباب من كلا الجنسين الانزلاق في مهالك المعاملات السلبية، أي أن يقعوا فريسة لإرضاء غرائزهم الشهوانية، التي يتم تليبيتها بطرق محرمة كالزنى التي تسمى في عصرنا الحاضر بمسميات باطلة: كالصداقة والصحة والحب الكاذب والمزيف. إن هذه الغرائز الجنسية لا يمكن تليبيتها إلا في ظل الحلال وهو الزواج، واحة المحبين وموطن رضى رب الناس أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع

- ١ - عبد الحميد محمود طهماز، السيدة خديجة، ص ١٦، دار القلم، دمشق - سوريا، ١٩٩٦/٥١٤١٤م.
- ٢ - السيد الجميلي، نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ص ١١-١٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان، ١٩٩٨/٥١٤١٦م.
- ٣ - خالد الحمودي، أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، ص ٥ - ٦، دار القاسم، نسخة إلكترونية.
- ٤ - Le Classement Forbes 2020 des personnes les plus riches au monde, magazine économique américain fondé en 1917 par Bertie Charles Forbes., Siège social New York Etats Unis Amérique.
٥. صفى الرحمان المباركفوري، الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية)، ص: ٧٨، دار الوفاء، المنصورة - مصر، ١٤٢٢م.

اشتهر هو الآخر في مكة وعند كثير من العرب بالصادق الأمين، وبعيد كل البعد عن مجالس اللهو وشرب الخمر، وهذا هو الوجه الثاني من أوجه التشابه بين هاتين الشخصيتين اللتين تألقتا بشكل باهر، في التحلي بمكارم الأخلاق.

خلاصة

إن الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من قصة أمنا خديجة في نهاية هذا المقال، كحلول لمشاكل شباب عصرنا الحالي، يمكن حصرها في ثلاث فوائد أساسية وهي: أن الشباب الذين أكرمهم الله تعالى بالاستفادة من الإرث والحصول على ثروة معتبرة، ينبغي ألا يَركَنُوا للكسل والبطالة بدعوى أن مستقبلهم المادي مضمون، كما لا يجوز لهم أن يُبدِّروا هذا الرزق عبر إنفاقه في المعاصي، بل عليهم أن يعملوا بعرق جبينهم لتتمة هذه الثروة، ويحرصون على تزكيتها بحمد الله عز وجل على هذه النعمة، عبر استثمارها في أعمال صالحة كما فعلت خديجة رضي الله عنها عبر اشتغالها بالتجارة.

أما الفائدة الثانية فتتجلى في أن قصة طهارة وعفة محمد صلى الله عليه وسلم وخديجة رضي الله عنها، هي دليل على أن الشباب والشابات الذين يحافظون على طهارتهم وهم قلة قليلة في زماننا، فهم ليسوا كما يدعي البعض، بأنهم يعانون من عقد نفسية ناتجة عن ضعف خبراتهم في مجال المغامرات الجنسية مع الجنس الآخر، بل على العكس من ذلك فهم قد بلغوا درجة عالية من النقاء والعفة، التي سيكافئهم الله تعالى عليها بالزواج من رفيق درب يتميز بنفس هذه الصفات، فكما أكرم الله تعالى خديجة بمحمد صلى الله عليه وسلم وكما أن الله تعالى أتحف محمد بزوجة صالحة اسمها خديجة، فهذه قاعدة اجتماعية قرآنية موثقة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات».

وفيما يخص الفائدة الثالثة فتجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين الذكر والأنثى، ينبغي أن تفهم فهماً صحيحاً، فهناك التعامل الإيجابي بين الجنسين، ويعني أن كل شاب سليم الفطرة يعتبر كل شابة لا تربطه بها قرابة، كأخته، إذ يتعاونان معاً في التحصيل الدراسي وفي العمل المهني وفي الأنشطة الاجتماعية، وفي كل ما يعود عليهما بالنفع لأنفسهم ولمجتمعاتهم، ويمارسون كل هذه الفعاليات بمشاركة أفراد المجتمع، متفادين بذلك الخلوة التي لا يقبلها شرعنا الحكيم، حفاظاً على شرفهم وسمعتهم بين الناس، وهو المجال الذي نجح فيه محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشتهر بالصادق الأمين والرجل العفيف الذي لم تكن له عشيقة في شبابه، وكذلك كانت خديجة

خصوصاً أن قوافلها كانت عابرة للدول وتمضي ذهاباً وإياباً، صيفاً وشتاءً، تغزو أسواق الشام وفلسطين واليمن ومصر، بل بلغت حتى الحبشة (أي إثيوبيا في وقتنا الحاضر)، فأصبحت بالتالي من أغنى أغنياء مكة، هذه المدينة التي كانت تعد من أبرز عواصم التجارة العالمية في زمانها، وهي تضاهي واشنطن في عصرنا الحالي (٢).

ومعلوم أن أغلب الأغنياء عبر التاريخ كانوا رجالاً وليسوا نساءً، مثل السبعة الأكثر ثراء في سنة ألفين وعشرين ٢٠٢٠ من القرن الحادي والعشرين الميلادي، كالملياردير الأمريكي جيف بيزوس (Jeff Bezos) صاحب مجموعة أمازون (Amazon)، ومواطنه بيل جيتس (Bill Gates) صاحب شركة ميكروسوفت العالمية (Microsoft)، والفرنسي برنار أرنولت (Bernard Arnault) وعائلته، فالأول قدّرت ثروته بمائة وثلاثة عشر مليار دولار، والثاني لديه ثمانية وتسعين مليار، أما الثالث فيمتلك ستة وسبعين مليار دولار (٤).

فكفى بنساء العالم فخراً أنه أمام كل رجال الأعمال هؤلاء، تتألق أمنا خديجة رضي الله عنها كأغنى وأنجح امرأة أعمال في الدنيا، منذ زمن بعيد، أي منذ أربعة عشر قرناً خَلَّتْ، حيث لم يكن لا تحرر، ولا ديموقراطية، ولا مساواة بين الرجال والنساء. ورغم هذه المكانة الاجتماعية الرفيعة لخديجة رضي الله عنها، ورغم انشغالها الكبير بإدارة تجارتها الدولية، إلا أنها لم تهمل يوماً أسرتها، بل كانت تعتني ببيتها وتحسن تربية أبنائها، لكن العبء مع ذلك كان ثقيلاً عليها، ولم تأبه رغم كل هذه الظروف الصعبة للطلبات الكثيرة والمتكررة من سادات قريش للاقتراح بها.

تعرفها لأول مرة على النبي صلى الله عليه وسلم

لقد سمعت السيدة خديجة في يوم من الأيام، نبأ شاب قريشي، ذاع صيته بين العرب، بما يتحلى به من صدق في حديثه، وعفته عن النساء، وحفظه للأمانة، فمالته نفسها إليه. لكن هيهات هيهات، فهي المرأة الذكية الفطنة العاقلة، إذ إنها لم تتساق وراء عاطفة الإعجاب بهذا الشاب، بل عملت على اختبار أولادها، فعرضت عليه أن يتكفل بتسيير إحدى قوافلها المتجهة إلى الشام، على أن تمنحه ضعف ما تعطيه للتجار العاملين معها، إن هو نجح في تحصيل أرباح معتبرة. فوافق محمد صلى الله عليه وسلم على هذا العرض (٥).

وقبل الحديث عن هذه التجربة المثيرة للانتباه، ينبغي الإشارة إلى أن خديجة رضي الله عنها، إن كانت مشهورة في شبابها وحتى بعد كمال رشدتها بالعفيفة الطاهرة، فقد شاءت الأقدار الربانية أن تلتقي بشاب